نقد العقل السياسي العربي

يطرح الجابري سؤالا رئيسيا في كتابه " نقد العقل السياسي" كيف تكوّن العقل السياسي العربي ؟ ومسار تكوينه في التجربة الحضارية العربية الاسلامية ؟

يرى الجابري أن العقل السياسي العربي بداية من الدولة الأموية مرورا بالعصر العباسي وصولا الى واقعنا السياسي الراهن هو عقل نقي محصورا في ايديولوجيات لاعقلانية كفكرة " الجبر" والتفكير الخارجي (الخوارج) والامامة.

كما يرى أن الممارسة السياسية في الحضارة العربية الاسلامية تخضع لمحددات ثلاثة أساسية هي : **العقيدة ـ القبيلة ـ الغنيمة** ، وفي ذلك يقول:" من الدعوة الى الدولة ـ دولة النبوة والخلافة، ومن هذه الى الملك العضوض والدولة السلطانية مسار واحد ... هي القبيلة ـ الغنيمة ـ العقيدة " حيث بقي الصدام العنيف والاقتتال هو الحل الغالب بين الفرقاء السياسيين بسبب عدم اقرار طريقة واحدة مقننة لتعيين الخليفة وعدم تحديد ولايته، وعدم تحديد اختصاصاته وعدم القدرة على محاسبته.

يعتقد الجابري بالنسبة **للقبيلة** فبدلا من الاعتماد على ذوي الخبرة والكفاءة نجد الاعتماد على ذوي القربى وليس مجرد قرابات الدم بل القرابات ذات الشحنة العصبية كالانتماء الى مدينة أو جهة أو طائفة.

أما **الغنيمة** فهي ما يفرضه الغالب على المغلوب من ضرائب واتاوات، سواء كان الغالب أميرا أو قبيلة أو دولة ، حيث تقوم الغنيمة بدور العامل الاقتصادي في المجتمعات التي تعتمد على الخراج والريع، والمقصود هنا ما تأخذه الدولة كجباية(الفيء ـ الجزية ـ الخراج).

وأما **العقيدة** فيقصد بها فعل الاعتقاد والتمذهب سواء كان على شكل دين موحى أو ايديولوجيا.

وفي النهاية بخلص الجابري الى أن القبيلة والغنيمة والعقيدة محددات حكمت العقل السياسي العربي في الماضي والحاضر أيضا، والنتيجة كانت نكسات فتحت الباب أمام عودة المكبوت كالعشائرية والطائفية والتطرف الديني والعقائدي لتسود الساحة العربية وتجعل حاضرنا مشابها لماضينا، فأصبحت القبيلة محركا للسياسة والغنيمة جوهرا للاقتصاد والعقيدة دافعا للفعل وتبريرا للقمع.

وخلاصة القول في العقل السياسي العربي إذا كانت محدداته القبيلة ـ الغنيمة ـ العقيدة فإن المطلوب، وهذه بالتحديد مهام الفكر العربي اليوم مهام تجديد العقل السياسي العربي ، المطلوب هو :

أ- تحويل القبيلة في مجتمعاتنا الى لا قبيلة أي زرع قيم المواطنة .

ب-تحويل الغنيمة الى اقتصاد ضريبي أي اقتصاد منتج.

ت-تحويل العقيدة الى مجرد رأي والتحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدغمائي.

نقد العقل الاخلاقي العربي

ينطلق الجابري في بحثه وكشفه عن العقل الاخلاقي فيصل الى أن عالم القيم في الثقافة العربية هو في الحقيقة عوالم وليس عالما واحدا، كما أن العقل الاخلاقي العربي هو عقل متعدد في تكوينه ولكنه واحد في بنيته، ويتكون نظام القيم العربي من خمسة نظم ثقافية وأخلاقية.

- الموروث العربي الخالص (أخلاق المروءة).
- الموروث الاسلامي (المستمد من أخلاق الدين).
- الموروث الفارسي (أخلاق الطاعة).
- الموروث الفارسي (أخلاق السعادة).
- الموروث الصوفي (أخلاق الفناء).

في البداية كانت هناك أزمة قيم حيث حتّم دخول الموروثات من خارج الثقافة العربية وجود أزمات اخلاقية كبرى يرجعها الجابري الى : وجود فراغ ، فأحداث السقيفة بعد وفاة الرسول (ص) هي أزمة، وحروب الردّة في عهد الخليفة عمر، والفتنة الكبرى في عهد عثمان ثم ظهور الفرق والصراعات السياسية، والنتيجة فراغ فكري رهيب بسبب التهافت والتهاتر في الخصام الى حد الافتقاد للفاعلية وذلك من حدة الخصام وتساوي أطرافه فينتج العدم.

1- الموروث العربي الخالص(أخلاق المروءة)

يقف الجابري عند المروءة باعتبارها قيمة مركزية منذ العصر الجاهلي الى اليوم، وقد استخلص هذا من كتب الأدب وأشعارهم ومكارمهم، ومفهوم المروءة في الذهن العربي هو مجمل الخصال المحمودة التي تمنع دخول الصفات المذمومة، ويأتي الكرم على رأس القائمة، ويرتفع معنى المروءة ليشمل الشرف، ثم الفتوّة التي تعني الصحة والقوة البدنية وحماية الضعيف وإغاثة الملهوث، وكان من ذلك وجود ظاهرة الصعلكة القائمة على الغزو والسلب من الأغنياء الأشحاء وتوزيعها على الفقراء.

2-الموروث الاسلامي (المستمد من أخلاق الدين)

يقف الجابري عند أربعة من الفقهاء الكبار من بينهم الحارث بن أسد المحاسبي، الذي اعتبر أخلاق الدين هي أخلاق الاستعداد للآخرة وذلك في كتابه " الرعاية لحقوق الله " لكن الجابري يتساءل : أليس الاسلام دين ودنيا ؟ لكن الماوردي راح يغطي هذا الجانب فيؤلف في أخلاق الدنيا، ثم ينتقل الجابري الى الاصفهاني الذي حاول التركيز على مكارم الشريعة ، أما الغزالي فيلتقي مع المحاسبي في أن الأخلاق استعداد للآخرة .

يرى الجابري أن التقوى هي القيمة المركزية في كل دين وأن ما يُشكّل خصوصية الاسلام هو كون التقوى يؤسسه العمل الصالح، لذلك يرى الجابري أن محاولة الفقيه العز بن عبد السلام في كتابه قواعد "الأحكام في مصالح الأنام" و"شجرة المعارف والأحوال ومصالح

الأقوال والأعمال" تبدو أقرب منهجيا الى تأسيس أخلاق اسلامية للدين والدنيا مستلهمة من القرآن والحديث واضعة القيمة المركزية التي هي مراعاة المصلحة والعمل الصالح كأساس للأخلاق الاسلامية .

3-الموروث الفارسي(أخلاق الطاعة)

وهو أخطر هذه الموروثات وهو أخلاق الطاعة والانقياد الى السلطان ولو كان غاشما ظالما جبارا ، ثم صارت أخلاق الطاعة تجد مسندا لها من القرآن والأحاديث النبوية وكتب الأدب العربي، فخطاب الطاعة "الكسروي" كان أول ما دُوّن في الأخلاق داخل الثقافة العربية ، تمثل ذلك في نصوص " كليلة ودمنة" لابن المقفع و"العقد الفريد" لابن عبد ربه ...وكانت هذه النصوص تدور حول ملكين فارسيين هما أردشير وكسرى أنوشروان، أما موضوعهما فكان عن علاقة الدين بالمَلِك (الدين والملك توأمان) وعلاقة الطاعة بالعدل (طاعة السلطان من طاعة الله). والنتيجة أن باتت الطاعة مطلوبة لذاتها وجعل الملك إلها والناس عبيدا، وانتشار مقولة " من اشتدت وطأته وجبت طاعته" فتحوّل الخليفة الأموي الى كسرى جديد ، وأبو جعفر المنصور الى أردشير الدولة الجديدة مع ظهور نزعة تقديس الامام عند الشيعة ، وانتقل مبدأ الطاعة الى الاسلام السني الرسمي.

4-الموروث اليوناني(أخلاق السعادة)

الأخلاق المستمدة من اليونان تقوم على الفلسفة وبناء تصور للكون، والقيمة المركزية لها هي "السعادة"، والدولة لم تكن في الخطاب الفلسفي اليوناني سلطانا أو سلطنة بل كانت مدينة، والمدينة ليست امبراطورية ولا مملكة، كما أنها ليست مجرد مكان بل هي منسوبة الى المواطن، فالأصل فيها المواطن.

تركّز الموروث اليوناني في ثلاث شخصيات : 1- أخلاق الطب (جالينوس) 2- أفلاطون 3- أرسطو (وكلاهما في الأخلاق الفلسفية)، فعلى أثار جالينوس نجد الكندي ثم الرازي وابن الهيثم وابن حزم، أما تأثير أرسطو وأفلاطون فكان في الفارابي والمدينة الفاضلة

والتي هي مزيج من تعاليم أفلاطون وأرسطو، وفي هذا المدينة يلغي الفارابي السعادة، إما بتأجيلها الى الحياة الآخرة وإما بربطها في هذه الحياة الدنيا بنموذج أردشير المستبد، أما في الاندلس فكان الامر أحسن مع ابن ماجه الذي قال بامكانية قيام مدينة فاضلة في هذه الحياة الدنيا بشرط تكوين الناس الفضلاء، كما يُشيد الجابري بابن رشد لنقده جمهورية أفلاطون بنزعة عقلية تحليلية واقعية (وفي هذا أُتّهم الجابري بالتحيّز للمغرب الاسلامي ضد المشرق)، لكن المفارقة التي وقعت فيما بعد أن تم الجمع بين الموروث الفارسي واليوناني (السعادة والاستبداد) كما عند ابن مسكويه والعامري، لكن في النهاية انتصر الجانب الفارسي عند ابن حيان التوحيدي كما يظهر في قوله :" السلطان في تدبير الرعية كالشمس في تفصيل الأزمان " . والنتيجة ، أضحت السعادة سعادة في عالم ماورائي تتحقق بتخليص النفس من أغلال البدن وقطع بين السعادة كقيمة وبين الاساس العقلي الذي بُنيت عليه أول مرة.

5-الموروث الصوفي (أخلاق الفناء وفناء الأخلاق)

يرجع الجابري سبب انتشار الصوفية في عصر ازدهار الحضارة العربية الى الموروث الصوفي الفارسي الذي كان منتشرا في الكوفة والبصرة، وقد اتجه هؤلاء الى التصوف بعد أن تمت الغلبة للعرب فسلكوا سبيل الهزيمة واتخذوا القوى الغيبية معتقدا لهم . يقول الجابري :" اعتزلوا السياسة فانقلب زهدهم تصوف يتغذى من الموروث الصوفي الفارسي والهرمسي". فالموروث الصوفي يجسّد استقالة العقل، ويُعلي الآخرة على الدنيا، وامتدّ العرفان الصوفي ليشمل التصوف السني.

ويخلص الجابري الى أن أخلاق الفناء التي كرّسها الموروث الصوفي هي أخلاق اللاعمل ، مبدؤها ترك التدبير وعدم التفكير في المستقبل كما فعل الغزالي، فنظروا الى الغزو الصليبي على انه عقاب من الله لأن المسلمين ضيّعوا طريق الله ، وهذا ما يقال أيضا عن فلسطين. والحق أن أخلاق الفناء لا تؤدي الى فناء الاخلاق بل الى فناء الامم ، ولم تكن مصادفة أن قامت حركة الاصلاح في العصر الحديث على محاربة الطرق الصوفية .

الخلاصة

وفي نهاية رحلة الجابري لتقصّي مسيرة العقل العربي الأخلاقي يؤكد على حقيقتين:

1- إن الرغبة في اتقاء الفتنة قد برّرت على الدوام قبول العيش في استكانة تحت الحكم الذي أصله فتنة ، فكانت النتيجة حكم قائم على التسلط.

2- لم ينهض العرب والمسلمون بعد، النهضة المطلوبة بسبب أنهم لم يدفنوا في أنفسهم أباهم أردشير الذي كرّس طاعة الحكام حتى ولو كانوا فاسدين مستبدين.